

The Method of Doubt between Descartes and Taha Hussein, a Comparative Study

Mohammed Mahmoud Ghazu
Language Center
Philadelphia University
ghazu_m@hotmail.com

Received : 24/07/2022

Accepted :14/11/2022

Abstract:

The philosophy of doubt is a controversial subject tackled by many Arab and foreign researchers of different intellectual, religious, political affiliations and doctrines. In this paper we will try to discuss this topic by answering the question: What are the similarities and differences between Descartes doubt and Taha Hussein? The paper is divided into two parts. In the first part, it discusses the philosophy of doubt at Descartes and in the second part it discusses the philosophy of doubt at Taha Hussein, particularly his doubt about pre-Islamic literature and poetry, which he considered mostly suspicious. With regard to Descartes part, the paper analyzes Descartes' uses of doubt as a principle of life and thought that leads to truth. As for the second part, the paper tracks personalities, and events that Taha Hussein doubted, and what led to this suspicion. The paper concluded that they both agreed to never doubt matters related to God and existence. Both of them used doubt to reach the absolute truth. As for the differences between both writers, Descartes discussed doubt as an ideology and philosophy, while Hussein used doubt to refute and clarify the ancient Arabic literature and its history.

Keywords: Arabic literature, Descartes, Taha Hussein, Suspicion, Philosophy, Comparative literature.

منهج الشك بين ديكرت وطه حسين، دراسة مقارنة

محمد محمود غزو

مركز اللغات

جامعة فيلادلفيا

ghazu_m@hotmail.com

القبول : 2022/11/14

الاستلام : 2022/07/24

المخلص:

إن فلسفة الشك موضوع جدلي خاض به كثير من الباحثين العرب والأجانب، على اختلاف مذاهبهم وانتماءاتهم الفكرية والدينية والسياسية. وفي هذا البحث سنباش هذا الموضوع، للإجابة عن السؤال الآتي: ما هي أوجه الشبه، والاختلاف بين شك ديكرت وشك طه حسين؟ وقد قسمنا البحث إلى فصلين، وناقشنا في القسم الأول فلسفة الشك عند ديكرت، وفي الفصل الثاني ناقشنا فلسفة الشك عند طه حسين، وعلى وجه الخصوص شكّه في الأدب والشعر الجاهلي الذي اعتبره في الغالب مشكوكاً به. في الفصل المتعلق بديكرت، حللنا استخدامات ديكرت للشك كمبدأ حياة وفكر يفرض إلى الحقيقة، أما في الفصل الثاني نتبعنا المواضيع والشخصيات والأحداث التي شكك بها طه حسين وإلى ما أفضى هذا الشك. لقد خلصنا إلى أنّ كليهما اتفق على عدم الشك أبداً في الأمور المتعلقة بالإله والوجود، كما استخدم كلاهما الشك للوصول إلى الحقيقة المجردة. أما أوجه الاختلاف بينهما، فإن ديكرت ناقش موضوع الشك كفكر وفلسفة، أما طه حسين فقد استخدم الشك لدحض وتوضيح ما يتعلق بالأدب العربي القديم وتاريخه.

الكلمات المفتاحية: الأدب العربي. ديكرت، طه حسين. الشك. فلسفة. أدب مقارنة.

المقدمة:

به، وقرأ كل كتبه سواء عندما كان في مصر، أو في أثناء رحلته ودراسه في جامعة السوربون. ومن أهم الدراسات السابقة التي ناقشت بعضاً من جوانب الشك، على سبيل المثال لا الحصر: الشعر الجاهلي بين الرواية والتدوين، لعلي أحمد الخطيب، وقراءة جديدة لقضية الشك في أدب الجاهلية لمصطفى الجوزو، وجدلية الشك في الشعر الجاهلي والتأسيس لمصادره بين "طه حسين" و"ناصر الدين الأسد" لعبد القادر منداس، ودراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي لعبد الرحمن بدوي، والشك المنهجي عند طه حسين "في الشعر الجاهلي" أنموذجاً لمزياني فهم، والشك الديكرتي لدى طه حسين: براديجم معرفي أم تلقي باهت؟ لمحمد خيط وغيرهم الكثير. ولم يتطرق أحد من هؤلاء الكتاب إلى الخوض في المقارنة بين فلسفتيهما في الشك. بينما تطرق بعضهم الآخر إلى دراسة مواضيع محددة تناولها بنوع من الشك، لكن لم يسبق لأحد أن ناقش أوجه الشبه والاختلاف في فلسفتيهما الشاكّة، ولا كيف وأين استخدم هذا الشك. إذاً سيكون الهدف من هذه الدراسة هو توضيح أوجه الشبه والاختلاف في منهجهما للشك؛ من خلال الإجابة عن السؤال الآتي: ما هي أوجه الشبه والاختلاف بين شك ديكرت وشك طه حسين؟ وبناء عليه، سنتهج رصد المواضيع التي تسبب الشك إليهم بها ومناقشتها، كلّ على حدة، والنتيجة التي وصلوا إليها عبر هذا الشك. وقد قُسم البحث إلى فصلين، ناقش القسم الأول فلسفة الشك عند ديكرت، والفصل الثاني ناقش فلسفة الشك عند طه حسين، وعلى وجه الخصوص شكّه في الأدب والشعر الجاهلي الذي اعتبره في الغالب مشكوكاً به. وينقسم هذا البحث إلى فصلين: سيتناول الفصل

منذ أن وجد الإنسان على الأرض، والشك يخالف نفسه ويتنازع في حيرة دائمة، حيث يختلف هذا الشك بين شخص وآخر ومن موضوع لآخر. فبعضهم يشك بوجود الله، والآخر بوجود كائنات أسطورية، أو نزول الوحي على نبي، أو قصة ما، أو وجود شخصيات تاريخية قديمة سمعنا عنها، إلى غير ذلك من المواضيع التي تُقنع بعضنا ولا تقنع الآخرين. لقد ناقش مفكرون كثيرون موضوع الشك وأهميته في الوصول إلى الحقيقة، بدأً باليونانيين والرومان وعلى رأسهم أنيسديموس، وغورغياس، وأفلاطون، وسقراط، مروّراً بالأوروبيين، مثل: مارين ميرسن، وديكرت، وديفيد هيوم، والعرب، مثل: ابن الهيثم، والغزالي، وطه حسين، وكثير غيرهم.

الشك هو أحد المواضيع التي شغلت الكتاب والفلاسفة، وأحد التيارات الجارفة التي استهدفت هدم الأصول الثابتة، والمبادئ المقررة في شتى مناحي العلم والفلسفة، وكنتيجة للحرية والانفتاح التي سرت خصوصاً في عصر النهضة، كانت فلسفة الشك أثراً من آثار حرية الرأي التي بدأ يشعر بها الإنسان بعد طول حرمان. ولانشغال فلاسفة العصر الوسيط بالجانب المنطقي، وخصوصاً المنطق الأرسطي، واتخاذ سبيلاً لتأييد بعض المذاهب والآراء، اضطر بعض المفكرين إلى التسليم بمقدماته، بينما اتخذ الآخرون ردود فعل مناهضة له.

انطلاقاً من الطبيعة البشرية الشاكّة، سعى ديكرت وطه حسين وغيرهما للخوض في موضوع الشك وحديثاته وأسبابه ونتائجه. لقد تحدث كثير من الباحثين في موضوع الشك عند الطرفين، وعلى وجه الخصوص تأثر "عميد الأدب العربي" بالفيلسوف الفرنسي ديكرت، الذي أعجب

وإلى معرفة ما يخبئه هذا الكون. فهو إذا ليس متشككاً، بل عقلاني لأنه يبني فكره على العقل، وعن طريق استخدام العقل، يريد إثبات حقائق لا التباس فيها. ولهذا بحث عما جعله يفكر فيما هو أكثر كملاً، فلم علماً جلياً أنه لا بد أن يكون ذلك عائداً إلى طبيعة تفوقه كملاً (هذه الطبيعة هي الله).

إنه يعتبر العلم كملاً ما دام الجهل نقصاً، وبما أنه ليس كاملاً إذاً فيه كثير من النقص ويتعرض للشك، وبناءً عليه فإنه يعتبر المعرفة أكثر كملاً من الشك. ومن هذا المفهوم الجدلي للشك الديكارتي، يعتبر الدكتور الشارني أن "الشك عمل سلبي في ظاهره، إذ هو نفي للمعرفة، لكنه يكتسي ويملك إيجابية عميقة وراء السلبية الظاهرة، وتتمثل إيجابية تلك في أنه دليل على وجود الكائن الشاك" (Descartes, 2008, p. 179)، لكن هذه الإيجابية محدودة وليست مطلقة، وتؤدي إلى عدم كمال الكائن الشاك رغم وجوده، وبالتالي إلى خلق سلبية جديدة. لقد اختار ديكارت الشك الذي هو بمثابة وسيلة أو أداة للوصول إلى الحقيقة، هذه الوسيلة ليست غاية في حد ذاتها ولا نتيجة حتمية لها، وهدفه، حسب رأي Louangvannasy (2018) "ليس البقاء في الشك، بل الخروج منه والوصول إلى معرفة حقيقية تكون بدورها أساس العمل المستدير"، وهذا ما يميز الشك المنهجي عن الشك المتردد، فالشك المنهجي طوعي ومؤقت.

فهو يعتقد بأنه عندما يشك في أكثر الأشياء وضوحاً، كحاصل اثنين مضافاً إلى ثلاثة يساوي خمسة، فهذا لأنه اعتقد أن إلهاً ما أعطاه طبيعة تدفعه إلى التيه أو الضلال في أشد الأمور جلاءً. هذا الشك يجعله مضطراً إلى الإقرار بأن الله يستطيع، متى شاء، أن يدبر أمره، بحيث يضل أو يهدي.

إن شكّه في كل شيء يجعله يتخيل الوجود على أنه شيء موجود والعكس، لهذا فإن هنالك العديد من الأشياء المبهمة بالنسبة له، كالأفكار المتعلقة بالبرودة والحرارة على سبيل المثال لا الحصر، فهو لا يعرف مثلاً هل البرودة هي الحرمان من الحرارة فقط، والحرارة هي حرمان البرودة، وهل الاثنان هما صفتان واقعيتان أم هما غير ذلك؟ إن مجرد علمه بأن التكهّنات التي تسوقه إلى إطلاق حكم في أحد الأمور، لا تركز على مبررات أكيدة وثابتة، وعلمه بأنها تكهّنات لا أدلة يقينية ثابتة، كافٍ للحكم عليها بصورة مختلفة، فهو يُخطئ ما اعتبره سابقاً صحيحاً، والسبب في ذلك أنه قادر على الشك فيما يعتقد.

في التعليق (16) على كتاب ديكارت "تأملات ميتافيزيقية"، يقول كمال الحاج: بأن "الشك ليس دليلاً على أن الحقيقة غير موجودة"، ولكنه دليل على ضرورة أن تعيد الطبيعة البشرية الضعيفة والمعرضة للخطأ، النظر في أساليب البحث عن الحقيقة. أما في التعليق (19)، فإنه يرى بأن الشك المنهجي، الذي أراده ديكارت، ليس سهلاً، فهو يتطلب وعياً شديداً، وبقيئاً في حالة استفار مستمرة، وريبة دائمة. وبما أننا ضعفاء، يسيطر علينا روتين الحياة اليومية ومتطلباتها السطحية، فنحن غالباً

الأول منهج الشك عند ديكارت، ومدى استخدامه للشك كمبدأ حياة وفكر يفرضي إلى الحقيقة، أما الفصل الثاني سيناقش فكرة الشك عند طه حسين، وسيتتبع المواضيع والشخص والأحداث التي شكك بها، وإلى ما أفضى هذا الشك.

الشك عند ديكارت:

تلقى ديكارت في صغره الكثير من "الآراء الخاطئة" التي ظنها صحيحة، ثم اتضح له فيما بعد أن ما يُبنى على مثل هذه الآراء، لا يمكن أن يكون إلا آراء يشك فيها، لهذا قرر أن يحرر نفسه منها جميعاً، وأن يبدأ ببناء الآراء على أسس جديدة وقواعد علمية وطيدة، لا يشوبها أي شك حتى يقتنع هو أولاً بهذه الآراء، ثم يقنع بها غيره. وبسبب المعرفة التي حصل عليها في السنوات الأولى من حياته، والتي لا تركز إلا على الحواس وسلطة المعلمين، فإن خياله يمتلئ بكمية هائلة من الآراء المغلوطة، ورغم ذلك فإنه يشكرهم لأن كل الأشياء التي علموه إياها قابلة للشك، لذلك فإن لهم فضلاً عليه أكثر مما لو كانت كل هذه المعارف مطابقة للعقل، ولو كانت كذلك لاكتمى بترديدها، ولمنعه ذلك من البحث بعناية عن الحقيقة.

لقد حوّل ديكارت الشك من كونه مصدراً لفقدان الأمل، إلى محفز للوصول على الأقل إلى حقيقة تضع حداً للشك، الأمر الذي جعل من الممكن إظهار هذه الحقيقة بشكل لا التباس فيه. وهذا الشك الديكارتي له عدة مراتب، هي: الشك في المعارف الحسية، والشك في المعارف العقلية، والشك في الواقع بصفة عامة.

لقد بدأ ديكارت شكّه المنهجي بالمعارف الحسية، وفي ذلك يقول بأن كل ما تلقاه حتى اليوم، وآمن بأنه أصدق الأشياء وأكثرها دقة، قد اكتسبه من الحواس، لكنّه جرّب هذه الحواس في بعض الأحيان فوجدها خداعة، لذلك فمن الحكمة ألا نطمئن كل الاطمئنان إلى من خدعونا ولو لمرة واحدة، ومع ذلك فهو يتساءل إذا ما كان بوسع أن يشك في كونه جالساً هنا على مقربة من النار مرتدياً عباءته. إنّه يدرك أن الشك الجذري يفيد بالآ لا نكون مخدوعين بالأفكار أو المعارف الخاطئة، وهذا الشك يطهرنا من أوهامنا، ويساعدنا في الوصول إلى الحقيقة دون تسرع. إن ديكارت يشك في كل شيء وخصوصاً الأشياء الموروثة، ويعتبر هذا الشك ضرورة لأنه يعبر عن الحرية الشخصية، ليس بالضرورة الحرية الفكرية، وإنما على الأقل الحرية السياسية والأخلاقية.

فيما يخص الأخلاق، يؤكد، (Debo, 2016) بأن ديكارت يرى بأنه من الضروري في بعض الأحيان "اتباع الأفكار والآراء وكأنها غير مؤكدة، فمن يرغب في البحث عن الحقيقة، يجب أن يرفض كل ما يمكن أن يقدم أدنى شك".

يؤكد ديكارت أن الغاية من وجود العقل ووضعه في الإنسان هو العلم، لذا يجب أن يستغل هذا العقل في السعي إلى معرفة الإنسان لذاته،

الفردى والمنظور الشمولي، فأى كائن إذا نظر إليه وحده فهو ناقص، أما حينما ينظر إليه كجزء من الكون فهو كامل ومكمل. إن ديكارت يعلم بوجود الله ويعرفه، لكنه لا يستطيع فهمه؛ لأنَّ الإنسان منتهٍ والله غير منتهٍ، يعرفه ويعلمه من خلال الإحساس بوجوده، إنه يؤمن بأنَّ الله موجودٌ من قبل ومنذ الأزل، وأنه سيوجد بصفة أزلية في المستقبل. لقد تعرض ديكارت للملاحقة وللإرهاب الأصولي المسيحي؛ لأنه كشف زيف الأخطاء الشائعة التي كان بعض العلماء يعتبرونها يقينيات لا تُمس ولا تُناقش، وهكذا صدَّقها رجال الدين، وتبنَّتها الكنيسة، وخلعت عليها القدسية، وبالتالي لم تجرؤ إلا القلة القليلة إنكارها، أو حتى الخوض بحيثياتها؛ لأنَّ مُنكرها مُعترض عليها يعترض على الدين وعقيدة الكنيسة. يجب أن تكون بطلاً، كما يقول الكاتب السوري هاشم صالح؛ لكي تواجه مثل هؤلاء الأصوليين الذين يهيمنون ويفرضون أفكارهم، أو يتبنون أفكاراً وكأنها إلهية غير قابلة للنقض، أو حتى الخوض فيها عكس ما يريدون. لقد واجه غاليليو العديد من الصعوبات لإقناع الناس بأنه يحترم العقائد الدينية، لكن وعيه وعلمه يجعله مضطراً إلى استخدام عقله وأدوات القياس والحساب؛ لكي يفهم العالم الطبيعي، ويستخرج من خلال التجريب العلمي القوانين التي تتحكم فيه، "ولكن عبثاً، كانوا يوقفونه عند حدِّه، ففي رأيهم كل شيء موجود في الكتاب المقدس، وينبغي أن يؤخذ بحرفيته، حتى ولو تناقض مع أبسط قواعد المنطق والعلم الحديث" (Abu Nasser, 2018).

على غرار محاولات التنوير والعقلانية التي تبناها ديكارت، انتهج أيضاً طه حسين هذا المبدأ، فتعرض أيضاً كما تعرض له هو وغيره إلى النفي، والتكفير، والاعتقال، والالتهام بالزندقة والهرطقة، كما حدث لحامد أبو زيد، وفرج فوده، ومصطفى محمود، ولطه حسين نفسه الذي كان يحلو لبعضهم أن يسموه (ديكارت العرب). لقد أثار كتابه «في الشعر الجاهلي» الصادر في عام (1926) -الذي بقي محظوراً على دور النشر طباعته، وكان يوزع سراً- "الهلع في صدور «المفكرين» التقليديين، وشكل ثورة فكرية هدفت إلى إمعان العقل، ومواجهة الفكر الأصولي تماماً كما حاول ديكارت من قبله، ممَّا جعله عُرضةً لملاحقة الفكر الأصولي المسيحي في عصره!" (Al-Mojil, 2017). رغم ذلك تجرأ ديكارت على القيام بانقلاب فلسفي في تاريخ العصور الحديثة؛ من خلال اعتماده الشك في كل شيء، خصوصاً العقائد والعلوم، وفي الإنسان نفسه، وفي أحداث التاريخ، وبهذا نقل المعرفة وموضوعاتها من الكونيات الإلهية إلى الفيزياء، والنظر إلى الأشياء بعين العالم، لا بعين الكتاب المقدس.

"أنا أشك إذا أنا موجود"، فكرة ترتكز عليها نظريات فلسفية عديدة لديكارت. إنَّ وجوده هو أول حقيقة يكتشفها فكره عندما يمارس الشك. وهذا يعني أنه مهما شك في كل ما يحيط به، وفي كل ما يفكر فيه، فإنَّه لا يستطيع أن يشك في كونه يفكر في الوقت الذي يمارس فيه الشك، وما دام الشك ذاته نوعاً من التفكير، "وما دمت أفكر فإنني

ننجرف دون انتباه منا. إذاً الشك المنهجي، كما يراه ديكارت "هو العمل الأكبر الذي يقوم به الفيلسوف، والذي ما أعطي لجميع الناس، على حد سواء" (Descartes, 1982, p. 279).

لقد كان ديكارت شغوفاً بالأدب للحصول عن طريقه على معرفة واضحة يقينية بكل ما هو مفيد في الحياة، لكنه فيما بعد غير رأيه تغييراً تاماً، لأنه وجد نفسه مكبلاً بالشكوك والأخطاء، إلى حد بدا له معه أنه لم يغنم من سعيه إلى تنقيف نفسه، سوى أنه اكتشف جهله أكثر فأكثر.

يتخذ مبدأ الشك، وهو المبدأ الأساس في فلسفة ديكارت، أشكالاً مختلفة عبر مؤلفاته: فهو بدلاً من البحث عن الحقيقة، يرفض رفضاً قاطعاً كل ما يستطيع أن يتخيل فيه أدنى شك ويعتبره شيئاً خاطئاً: إذا ما كان هنالك موضوع متعدد الجزئيات، وكانت إحدى هذه الجزئيات مشكوكاً بها، فإنه يشكُّ بها جميعاً، ولا يفصل جزئية عن أخرى: إنه ينبذ كل الأشياء الخاطئة التي يحتمل أن يكون فيه أدنى شك. إنه يذهب إلى فكرة هدم البيوت القائمة لإعادة بنائها؛ لأنه يعتقد أن هذه البيوت يجب أن تبنى على قواعد ثابتة وأسس مدعمة، فإذا ما كانت القواعد ثابتة، سينهار البناء أمام أية هزة بسيطة أو رياح قوية. هذا ينطبق على قواعد تبني الآراء والبحث عن الحقائق المدعمة بالبراهين العلمية الواضحة والقوية غير القابلة للشك وبالتالي الانهيار.

إن الشك يؤدي بديكارت إلى الجزم بأنَّه يرى في الجوهر اللامتناهي وجوداً، أكثر مما في الجوهر المتناهي. ففي "تأملات ميتافيزيقية" (ص 119) يرى بأن فكرة اللامتناهي سابقة عنده لفكرة المتناهي، أي أنَّ الله سابق لذاته، وإلا كيف يعرف أنه يشك، ويرغب، يعني أن شيئاً ينقصه، وأنه ليس كاملاً كل الكمال، لو لم تكن لديه فكرة عن كائن هو أكمل من كيانه، أيعلم بالقياس إليه ما في طبيعته من عيوب؟ وبناء عليه، فقد رسَّخ في ذهنه معتقد فحواه أنَّ هنالك إلهاً قادراً على كل شيء، هو الذي خلقه وصنعه على نحو ما هو موجود. لم يهتم ديكارت، حسب رأي الدكتور عمر الشارني، بتعريف الإله بقدر ما اهتم بالبرهنة على وجوده؛ لأنَّ الله تام الكمال أو لا متناه. وبشأن هذا الإله، يميز ديكارت بين المعرفة أو العلم من جهة، والفهم من جهة أخرى، ويعني ذلك أنه إذا كان بإمكان الإنسان، وهو كائن منتهٍ وغير كامل أن يعرف الإله ويعلمه، فإنَّه لا يمكن أن يفهمه، "إذ لما كانت كلمة فهم شيء، تعني شيئاً من التحديد، فإنَّ ذهنًا محدوداً لا يمكن أن يفهم الإله الذي هو غير منته، لكن ذلك لا يمنعه من أن يدركه مثلما نستطيع تماماً أن نلمس جبلاً، دون أن نتمكن من معانقته" (Descartes, 2008, p. 192).

إنَّ الشك هو وحده الذي يجعل ديكارت متيقناً من وجود إله؛ لأنه عندما يشك يعتبر نفسه شيئاً ناقصاً يعتمد على سواه الكامل المستقل. منذ أن اعتزم الشك في كل الأمور، فإنَّه لا يعرف إلا وجوده ووجود الله. إنَّه يشك في كل شيء، لكنه ينظر لكل شيء من منظورين، المنظور

للتحقق، والتحليل، والنقد، والتقييم المبني على العلم، والحرية الفكرية، والأسس الموضوعية.

في تناوله للأدب العربي القديم وتاريخه، ورغم معارضة أنصار المنهج القديم في الدين والفلسفة، أراد طه حسين أن يتبع المنهج الفلسفي الديكارتي المبني على القاعدة الأساسية لهذا المنهج، وهي "أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلواً تاماً" (Hussein, 1996, p. 54). إن الباحث إذا لم ينس قوميته ودينه وميوله العاطفي والفكري، وما يتصل بها من أهواء؛ فسيضطر في دراسته وحكمه على مخرجات بحثه إلى المحاباة، وإرضاء العواطف أو إرضاء الآخر، وبالتالي يكون بحثه مفتقراً إلى المصداقية، وربما يشوه الحقيقة. وبناء عليه فإن طه حسين، في دراسته للشعر الجاهلي، اتخذ طريق الفلاسفة الغربيين المحدثين ومنهجهم، وخصوصاً منهج ديكارت، وهو "منهج الشك سبيلاً إلى اليقين". ومن هنا انطلق في بحثه عن أي شيء خالي الذهن من الأقوال والآراء السابقة في موضوع البحث. لقد دعى مؤرخ الآداب العربية أن يقف موقف الشاكّ يشعر الجاهليين، إن لم يكن موقف الإنكار، وأن يحزّر عقله الجامد، وي طرح بدائل فكرية بأدوات جديدة هدفها عقلنة الحياة، والتمرد على ما يعتبر ثوابت. يجب على الباحثين توظيف نظرية الشك توظيفاً أدبياً ونقدياً للكشف عما هو منحول في الأدب والتاريخ العربي القديم.

كان طه حسين معجباً بفلسفة سقراط، التي تتخذ الشك سبيلاً لليقين أيضاً، فقد كان يضع كل شيء موضع البحث، ويعرض الأشياء أحياناً للشك وأحياناً للإنكار؛ لكي يصل إلى الحقائق. لم يشمل الدين ولا النظام السياسي من هذا الشك والإنكار. وبناء عليه فإن طه حسين يشك في سبب الخصومة بين السياسة والعلم، ويرد هذا الشك إلى استغلال الساسة لهذه الخصومة للبقاء كميّطراً على الناس عبر التسلط، وتلقّ عواطفهم. فلولاها "لما قتل الأثينيون سقراط؛ ولما حاول اليهود صلب المسيح؛ ولما سفك الرومان دماء اليهود والنصارى؛ ولما أخرجت قرش محمداً وأصحابه من ديارهم؛ ولما عذب ابن رشد و"جاليليو"، ولما أحرق من أحرق، وشرد من شرد من العلماء والمفكرين" (Hussein, 2012 B, p. 219). وحسب رأي طه حسين، فإن ديكارت كان ينتهج في الفلسفة مذهبين مختلفين، أحدهما: سهل الفهم يعلنه إلى الناس، والآخر يحتفظ به لنفسه، وللأصفياء من تلاميذه؛ لأنه أفسر وأدسم ولا يستطيع عامة الناس فهمه. عبد الله بقاري يؤيد أيضاً هذه الفكرة، ويؤكد متحدثاً عن فلسفة الشك عند ديكارت، بأن "طه حسين يؤكد أنّ نظرية ديكارت لها ملمح ظاهري أقل عمقاً، ولها فهم آخر داخلي أكثر عمقاً، لكن د. طه حسين لم يكشف عن هذا الفهم العميق" (Baghazi, 2010)، لأنه موجّه فقط لمن يفهمونه.

رغم أن طه حسين "لم يكن أول باحث في العصر الحديث، بحث في صحة الشعر الجاهلي وأسباب الانتحال فيه" (Badawi, 1979, p. 63

كائن موجود من حيث أنا جوهر يفكر، ومن هنا فإن الشك الذي يهدف إلى نفي وجودي، إنما هو على العكس من ذلك يثبت أنه لو لم أكن موجوداً لما شككت ألبتة" (Descartes, 2008, p. 383). إنه يشك أيضاً لأنه ليس مستقلاً بذاته، لذلك فهو لديه صفات سلبية مثل: الشك، والرغبة، والفرح، والحزن، والتعلق، والزهو، وهذه كلها من صفات المتناهي أي الشاك. إنه يعتبر الأشياء المحسوسة والملموسة خاطئة، أو على الأقل محلاً للشك، أما الأشياء الروحية فهي صحيحة وحقيقية. أما بخصوص الإله فإن الملحد، حسب رأيه، متيقن من أنه سيفشل في معرفة الأشياء شديدة الجلاء؛ لأن الشك سيأتيه إذا فحص هذه الأشياء من طرف آخر، وهو لن يكون أبداً في مأمن من خطر هذا الشك؛ إن لم يسلم بوجود إله كامل وأزلي، لهذا فقد اهتم طه حسين بالمنهج الديكارتي ليس بسبب شهرته ونجاحه عالمياً، بل لأنه ينفي كل شيء ما عدا الله والأنا، أي وجوده كإنسان يفكر.

يثبت ديكارت في محاور البحث عن الحقيقة، أنّ الشك دليل قطعي على الوجود، فيقول على لسان (Eudoxe): "نظراً إلى أنكم لا تستطيعون إذن أن تعترضوا على أنكم تشكون، وأنه على عكس ذلك من اليقين أنكم تشكون، وأن (شككم) على درجة من اليقين بحيث لا تستطيعون الشك فيه: فيكون أيضاً من الحقيقة أنكم (موجودون) أنتم الذين تشكون، وذلك (أمر) على درجة من الحقيقة، بحيث لا تستطيعون الشك فيه أكثر" (same source, p. 180).

أخيراً، إنّ ديكارت يشك في كل شيء، وهذا الشك هو منهجه للوصول إلى الحقيقة التي لا التباس فيها، فهو لا يشك فقط من أجل الشك، بل من أجل أن يفهم حقائق الأمور، ولكي يكون مقتنعاً بما يرى أو بما يعتقد. ولكي يصل إلى ما يصبو إليه، فإنّه يلغي كلّ الأمور المشكوك فيها؛ من أجل تأسيس شيء ثابت ومستمر في العلوم والمعارف. الشيء الوحيد الذي لا يشك به هو وجود إله كامل أزلي منزّه عن النقص أو العيوب؛ لأنه لا متناهٍ ومستقلّ استقلالاً تاماً. لقد سبقه في هذه الفلسفة الكثير، وتبعه أيضاً الكثير، لكنه بقي مميزاً في طرحه لها. إنها كما أسلف (Rover, 2019): "مسألة دفع الشك إلى أقصى حدود شدته، حتى لو وصلت الروح الإنسانية إلى نقطة الانهيار، لإعادة ضبط جميع الأشياء اليقينية".

الشك عند طه حسين:

إن فلسفة طه حسين في الشك أخذت طريقها باكراً عبر منهج البحث المتأني والعقلاني، عندما ابتعث إلى فرنسا عام (1914) لدراسة العلوم التاريخية والفلسفية، حيث كانت رسالته في فلسفة ابن خلدون الاجتماعية. لقد حضر دروساً وندوات عن فلسفة ديكارت في جامعات فرنسا وغيرها، وكتب عن ديكارت مقالات عديدة، وأصبح اهتمامه في التفكير الفلسفي كبيراً. هذا التأثير بديكارت، جعله يُخضع أيّ موضوع

شعر الفرزدق وجريرو والأخطل، أكثر من ظهورها في الشعر المنسوب إلى طرفه وعنتره والشماخ. إن ما نسميه شعراً جاهلياً ليس من الجاهلية في شيء، وإنما هي أشعار مختلفة بعد ظهور الإسلام. ما كان طه حسين يصل إلى ما وصل إليه لولا شكّه بذلك، وبناء عليه فقد اعتبر أن القرآن هو أصدق مرآة للحياة الجاهلية.

إنّه يرفض فكرة اعتقاد الرواة بأن الشعر الجاهلي انتقل من ربيعة إلى قيس إلى تميم وظل فيها إلى ما بعد الإسلام أي إلى بني أمية، ويشكّ فيما أتى به هؤلاء الرواة؛ لأنه حسب رأيه لا توجد معلومات صحيحة ومثبتة عن ربيعة وقيس وتميم وغيرها من القبائل، فهو ينكر أو يشكّ في وجود مثل هذه الأسماء التي تُسمى بها القبائل، وكذلك في موثوقية الأنساب بين الشعراء وبين أسماء هذه القبائل، ويعتقد أنّ هذا كله مشكوك به، وهو أقرب إلى الأساطير منه إلى العلم اليقيني.

إن دراسته المعمقة لهذا الشعر ومدى مصداقيته أفضت به في فصل: "أسباب انتحال الشعر" عند العرب وغيرهم، إلى معرفة مدى تأثير العصبية القبلية والمنافع السياسية على مصداقية هذا الشعر الذي انتحل العرب كثيراً منه وأضافوه إلى الشعر الجاهلي. إنّ الخلاف الحاد بين شعراء قريش، وشعراء الأنصار، وما يُعتقد أنّه أضيف إلى أشعارهم دفع بطله حسين إلى استخلاص نتيجة الانتحال. وهنا يقول إننا "تستخلص منها قاعدة علمية، وهي أن مؤرخ الآداب مضطر حين يقرأ الشعر الذي يسمى جاهلياً، أن يشكّ في صحته كلما رأى شيئاً من شأنه تقوية العصبية، أو تأييد فريق من العرب على فريق آخر

(Meziani, 2021, pp. 160-159). يجب أن يزداد هذا الشك ويتشعب أكثر إذا ما تعلق بالقبائل التي أيدها هذا الشعر بعصبية، ويعتقد أنها أدت دوراً في الحياة السياسية للمسلمين. وبما أنه لا يوجد دليل علمي على وجود مثل هذه القبائل سوى في أشعار بعض الشعراء، فإنّ طه حسين يشكّ بوجودها؛ لأنه لا يثق كثيراً بمثل هؤلاء الشعراء وأهذافهم وغاياتهم، فبعضهم بحث عن الشهرة، وآخرون بحثوا عن المال، وآخرون عن الخطوة، ومنهم من تملّق للحكام وغيرها من الأسباب.

في عرضه "منهج الشك عند طه حسين ومرجعياته"، يرى عمرو زابر بأن طه حسين قد بالغ كثيراً في ارتيابه في صحة الشعر الجاهلي، وهو لا يمثل ما كان للعرب قبل الإسلام من حياة دينية وعقلية واقتصادية وسياسية، ولم يحاول البحث عن استثناءات لهذا التعميم وينفي صدقه. هذا يعني أن تفكير طه حسين قد غلبت عليه الاعتبارات السلبية، فاستسلم للشك، وأهمّل البحث عن دواعي اليقين، وهذا انعكس على نتيجة بحثه التي اتسمت بالسلبية؛ لأنه اعتبر الأغلبية المطلقة للشعر الجاهلي منحولة.

في الفصل الرابع الذي حمل اسم "القصص وانتحال الشعر" من كتابه "في الشعر الجاهلي"، أسهب طه حسين في الحديث عن انتحال القصص لكثير من الشعر والأحداث. إنّ كثيراً من الأحداث التاريخية

11)، كما يرى عبد الرحمن بدوي، بل ربما آخرهم، فقد أحدث في عصره ثورة فكرية زلزلت الكثير من الثوابت، وجعلت مصر تعيش عصراً من التغيير الثوري في كافة مجالات الحياة الفكرية والأدبية والتعليمية، كان السر فيها تحديداً هو المنهج الفلسفي العقلاني الذي استقاه من الفلسفة العربية والفرنسية عموماً، ومن رينيه ديكارت على وجه الخصوص. إنّ المنهج الذي طبّقه في دراسته للشعر الجاهلي، وقد قال في ذلك صراحة في مطلع كتابه الذي حمل العنوان نفسه: «إنني سأسلك في هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة، فيما يتناولون من العلم والفلسفة، أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكارت؛ للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث» (Al-Nashar, 2018).

اضطر طه حسين إلى مواجهة مجتمع مُستغرقٍ في ثقافته التراثية، ونصوصٍ ليس من السهل إحالتها إلى الشكّ والنقد. إنّها مغامرة كبيرة أن يتصدى كاتب لموروث أمة بكامله، معتمداً على منهج غريب وغير مُرخب به، لا من قبل الأوساط الدينية ولا الأدبية، لذا كانت هذه الآراء المُتمردة على الواقع والمناهج التقليدية ووجهات نظر المحافظين، بمثابة ثورة ومواجهة كبيرة لهم.

أراد طه حسين إذاً ألا يقبل شيئاً مما قاله القدماء في الأدب وتاريخه، إلا بعد أن يبحث ويتثبت، فإن لم ينته هذا البحث والتيقن إلى اليقين، فقد ينتهيان إلى الرجحان، فالإيمان القائم على ما قاله السابقون يتسم بالشك والتحفّظ الذي يبعث على القلق والاضطراب وبالتالي بالجدود، أما الإيمان القائم على البحث والتحقيق والقناعة، فهو إيمان راسخ يبعث على الاطمئنان والرضا. لقد لجأ طه حسين إلى تغليب الانطباع على حساب الضوابط العلمية في الحكم على فساد الشعر واضطرابه، وبما أنّه أخذ برأي الأغلبية بأن أشعار القدماء لم يثبت بأنها منحولة ولا حتى صحيحة، إذاً شكّه بذلك لم يؤدّ إلى اليقين، وبالتالي شكّه غير منهجي. لذا نستنتج، حسب رأي مزنياني، "أنّ طه حسين لم يلتزم تطبيق منهج الشكّ كما تصوره ديكارت، وإنما اعتمد فقط ما يخدم توجهه وغرضه من الدراسة" (Hussein, 1996, p. 101).

إنّ دراسته للشعر الجاهلي ووصوله إلى النتيجة التي وصل إليها، كانت بسبب شكّه، وبناء رأيه على أسس علمية واقعية، فهو يشكّ في قيمة هذا الشعر، ويُصرّ كثيراً على فكرة الشكّ به. لهذا السبب هو يبحث ويفكر ويقرأ ويتدبر؛ لكي يصل إلى اليقين، أو القناعة الناتجة عن هذا الشك. بعض النقاد، ومن بينهم، مزنياني فهم يرى بأن طرحه غير موضوعي، وخصوصاً فيما قاله حسين بشأن شعر الفرزدق المنسوب إلى امرؤ القيس، "إنما هو مجرد شك لا يرقى إلى درجة اليقين، أو إن شئت فقل هو كلام عام مُفترض يفقر الحجة على صحة ما ادعاه طه حسين" (Meziani, 2021, p. 16).

مرتكزا على هذا الشكّ كفاعدة أساسية متينة لدراسة الشعر الجاهلي، خلص طه حسين إلى أنّ حياة العرب الجاهليين ظاهرة بشكل جلي في

(318). فكما رفض الأخوين كوزيه نسبة أغلب ما جاء في الإلياذة إلى شاعر يسمى هوميروس، رفض طه حسين أغلب ما جاء عن امرئ القيس.

طه حسين يضع كل ما يتعلق بالشعر والتاريخ وكثير من أحداث الجاهلية في خانة الفحص والتمحيص، والدراسة المبينة على البراهين والحقائق العلمية. فعلى سبيل المثال يشك كاتبتنا بكل ما يتعلق بامرئ القيس وأشعاره واسمه وحسبه ونسبه. إنه يتهم القدماء بالكسل العقلي، وعدم البحث عن حقائق الأمور. وبناء عليه فإنه يرى بأن القارئ أينما توجه في قراءته للتاريخ القديم المأخوذ عن الشعر الجاهلي، لا يجد إلا شكاً، هذا الشك المُقترن بالقصة، واللغة، والنسب، والرحلة، والشعر، والأحداث المروية عن تاريخ بعض القبائل والحكام، وغيرها من الروايات حول الماضي. إنه ينكر على الآخرين رغبتهم بأن يصدقوا ويؤمنوا ويطمئنوا إلى كل ما يتحدث به القدماء عن كثير من الشخصيات، والأسماء ذائعة الصيت كجرهم وعنترة وغيرهم.

طه حسين يقسم الناس إلى قسمين، قسم مسرف في الشك، وقسم آخر مسرف في اليقين، وكلاهما مُعرضٌ للخطأ الشديد، ومخاضمون للعلم الصحيح، فالشاكون مخطئون؛ لأنهم ينكرون أنفسهم وينكرون العلم، والموقنون أيضاً مخطئون؛ لأنهم ينكرون العلم والتطور الذي هو قوام الحياة، ومع ذلك إنه يعذر الطرفين.

لا ينكر طه حسين على سبيل المثال الرواية التي تدور حول شك أبي العلاء المعري؛ بسبب أكله للعدس والزيت ولا يثبتها، ولا الشك في وجود سقراط من عدمه، ولا الشك في دوران الأرض أو إثباته، لكنه يؤمن بأننا مدينون في هذه الآراء إلى المؤثرات المادية والمعنوية الكثيرة التي تكتنفنا. في معرض حديثه عن الآراء الكثيرة والمختلفة حول قضية دوران الأرض، يخلص كاتبتنا إلى أنه يجب ألا نغلو في الشك أو في اليقين، وأنه من الأفضل أن نكتفي بالترجيح، وأن نجعل القرآن وغيره من الكتب الدينية في "حصن منيع" من التأثيرات الخارجية، وأن نرفع الدين ونصوصه من اضطراب العلم وتناقضه.

أثناء مشاركة طه حسين في مؤتمر العلوم التاريخية المنعقد في بلجيكا، قدم مذكرة بحثية حول اتفاقية عقدت بين الملك خليل بن قلاوون، وابن جايك الثاني، ملك أراجون، إسبانيا، سنة (1292)، بعنوان "نص معاهدة دفاعية هجومية"، حيث وجد بها الكثير من الاضطراب والتحريف في نصها وفي ترجمتها للعربية، وكل هذا بسبب شكه بكل ما يدور حولها. لقد وجد نص هذه المعاهدة في صبح الأعشى للقلشندي، ولم يكن راضياً عن وجودها بهذه الحالة، لأن القلشندي، حسب رأيه، لم يتحقق من المعاهدة وترجمتها، ولم يفهم قيمتها التاريخية. لم يقتصر هذا الشك ببعض الأحداث والشخصيات العربية القديمة، بل تعداها حتى إلى شخصيات أجنبية كهوميروس، رمز الشعر القصصي اليوناني، وسقراط، رمز الفلسفة اليونانية الذي استحدث فن الحوار الفلسفي.

والحروب الجاهلية، كحرب "البسوس وحرب داحس والغبراء"، ليست إلا أساطير وذكريات مشكوك بصحتها، تحدث بها العرب وتناقلوها ونموها. أضف إلى ذلك، كل ما روي في الأشعار والأخبار عن العلاقات بين العرب وغيرهم من الأجانب كالفرس واليهود والحبشة منتحل، وأغلبه مشكوك فيه. زد على ذلك، كل ما يروي عن طسم وجديس وجرهم والعماليق وتبع وحميز وشعراء اليمن وعاد وثمود، مواضيع لا أصل لها.

الدكتور ناصر الدين الأسد الذي تتلمذ على يد طه حسين، وكانت رسالته للدكتوراة حول الشعر الجاهلي، يرى أن كتاب طه حسين "في الشعر الجاهلي" قصد منه الكاتب أمرين: "أولهما: أن يهز العقل العربي ويحرره من جموده، وأن يجدد أفكاره، ويجنبه من تكراره لنفسه، وأن يدعوه إلى استحداث أفكار جديدة لا أن يجتر أفكاره القديمة... وثانيهما: أن مؤلفه أراد أن يحدث زلزلة ملفقة بين القراء تجعلهم ينتبهون لما يتم في العالم المتقدم من نهوض". (Hussein, 1996, p. 9).

إن الخصومة الشديدة بين العرب والفرس أفرزت شعراء وأدباء من كلا الجانبين، غيروا وأضافوا وحذفوا بعض الحقائق التي تخص الطرفين، وهذا ما جعل طه حسين يشك في الشعر الذي تناول بطولات العرب والفرس، خصوصاً في فترة الحكم الأموي. وبناء عليه فإنه يعارض فكرة الجاحظ الذي اضطر في كتابه "الحيوان"، أن يثبت أن العرب لهم باع طويل فيما يتعلق بعلم الحيوان، ليثبت فضل العرب على الأعاجم والفرس، كل هذه الأحداث والأشعار والقصص المروية عن الجاهليين دعت طه حسين إلى الشك بها ومراجعتها.

هذا الشك والانتحال، يُعزى حسب فلسفة طه حسين إلى أسباب عامة، تتعلق بظروف الحياة السياسية والدينية والفنية للمسلمين وللرواة والشعراء، من بينها مجون الرواة وإسرافهم في اللهو وبعدهم عن أصول الدين. الرواة الذين نقلوا لنا الأدب العربي ودونوه هم بين اثنين: إما أن يكونوا من العرب، فهم متأثرون بما كان يتأثر به العرب، ويصب في مصلحتهم، ويخدم قضاياهم. وإما أن يكونوا من الموالي، فهم أيضاً متأثرون بما كان يتأثر به الموالي، ويدعم تفوقهم وقضاياهم. ولا يقتصر هذا الشك عند كاتبتنا فقط بالأدب العربي القديم، بل يذهب به إلى الأدب اليوناني واللاتيني والروماني والفارسي؛ لأن الأسباب العامة المؤدية للانتحال والتتميق هي واحدة عند معظم الشعراء، والرواة بغض النظر عن دينهم وعرقهم، ما دام هدفهم الأسمى جمع المال والحظوة. إذن، لكل أدب قسمه الصحيح وقسمه المشكوك فيه، ولكل أمة تاريخ صحيح وآخر مشكوك به. وبما أن طه حسين تأثر كثيراً بالكتاب الغربيين مثل: كروازيه، ومرجليوث، والأدباء اليونانيين والإغريق، ما فتى في حديثه عن الشعر الجاهلي "يذكر الأدب الإغريقي، ويشير إلى نقاط التشابه بين الأدب العربي الجاهلي وهذا الأدب الإغريقي، ويقارن بين لغة قريش ولغة الأثينيين، وكيف أن اللغتين غلبتا على اللهجات الأخرى لغة للشعر ولغة للكتابة" (Mendas, 2015, pp. 317-).

مصطفى محمود، من جانبه، سلك أيضًا هذا الدرب ليصل إلى النور الذي يعيد النفس الإنسانية إلى الصحة والاعتدال، عبر معرفة جوهر المعارف والحقائق القادمة من طريق العلم.

مما سبق نلاحظ أنّ طه حسين آمن بضرورة تفعيل المنهج العلمي في تناول الأدب، والعلوم، والتاريخ، وحتى صحّة وجود بعض الشخصيات التاريخية القديمة، كبديل عن أخذ دراسات وروايات الأقدمين المبنية على أسس غير علمية، وملئة بالمغالطات والأهواء. هذه الروايات أدت إلى استنتاجات مشكوك بها؛ لأنها خضعت للعواطف الدينية والطائفية والعرقية وغيرها من الأسباب التي هزت مصداقيتها. بناء عليه، رفض طه حسين فكرة الانغلاق الفكري داخل إطار المسلم به، والصدق المطلق لكل ما روي أو قيل عن الأدب أو التاريخ. إن بعض النقاد، كمحمد خيط، يأخذون على طه حسين بأنه "لم يأت بجديد، فالحديث عن الانتحال معروف منذ ابن سلام الجمحي، ومجمل ما قام به هو نقل البحث من مستوى التاريخ الأدبي إلى مستوى نقد العلم، دون أن يقدم بديلاً منهجياً، وبهذا وسع دائرة الشكّ وبدّد هالة القديم، فوضع علم القدماء موضع الدراسة والنقد، دون أن يحاكمهم إلى مناهجهم أو وفق عصرهم" (Bouzida, 1994, p. 13).

في التقديم الذي كتبه عبد المنعم تليمة لكتاب طه حسين "في الشعر الجاهلي"، الذي تحدث به طه حسين عن حقيقة الشعر الجاهلي، ومدى مصداقيته، يقول تليمة: "بأنّه يجب على الدارس الحديث "ألا يستسلم لكلّ ما جاء عن الأقدمين، بل عليه أن يخضع أقوالهم ورواياتهم وكتاباتهم لمناهج التحقيق الحديثة، وهي المناهج التي تبدأ بالشك سبيلاً إلى اليقين، وتوجه الدارس إلى أن يتجرد من العاطفة والهوى، ومن كلّ ما كان يعلمه قبل بدء عمله العلمي" (Khayat, 2017, p. 290).

لم يكن طه حسين استأذاً جامعياً فقط، وإنما مفكراً ومحاوِّراً مميزاً ومدافعاً عن الثقافة العربية المفتوحة. لقد تابع بحثه عن أصول الإسلام والثابت، وما يمكن أن يناقش فيما نقل عن كتاب الإسلام، لقد طور بحثه عن تعاقب الإسلام؛ مما جعله عرضة للنقد الشديد، واتهامه بانفتاحه على الغرب، وإفراطه في موافقة هذا الغرب علمياً وثقافياً، وقد اتهم "بأنه تابع للغرب". في العام (1926) نشر طه حسين كتابه "في الشعر الجاهلي"، الذي اعتبر حينها فضيحة مدوية أججت الصراع الكبير مع الأزهر، بل وتجاوز هذا الصراع الأزهر ورجالاته، وعبر الحدود إلى كل الوطن العربي، وتقريباً كلّ العالم الإسلامي؛ من خلال دعوته لفصل الدين عن الدولة، ومناقشة الأمور بعقل منفتح غير خاضع لأية سلطة سوى سلطة العقل، وشكّه بالتاريخ العربي الذي نقل لنا صورة عن العرب وتاريخهم وشخصياتهم والأحداث التاريخية المتعلقة بهم، يرى طه حسين بأن السياسة والأسياذ حرفوا جزءاً كبيراً من هذا التاريخ حسب أهوائهم؛ لأن الشعر الجاهلي الذي بُني عليه الكثير من التاريخ العربي، كُتب إما في العصر الأموي، أو في العصر العباسي، وليس شعراً جاهلياً بحق. إن دعوته صريحة وعلنية للتجرد

مُتحدثاً عن عنتره يقول: إنّ الناس لا يريدون أن يصدقوا عكس ما اعتادوا على تصديقه من روايات وأحداث وأشعار. إنّهم ينكر الكثير من الأمور حول عنتره، ويشكّ في بعض قصائده وبما يضاف إليه من الشعر القديم، فيقول لأحد أصدقائه، لو كنت في زمن عنتره، لصدقت كلّ ما يقال عنه، كما تصدق أنت الآن كلّ ما يقال عن وزير التقاليد أو وزير المعارف، وسيتبين لاحقاً أنه ليس كلّ ما سمعت أو قرأت عنهما صحيح. فكما كان للقدماء عنترتهم، لك الآن عنترتك. أما الأجيال اللاحقة، ستشكّ في وزير التقاليد، ووزير المعارف وغيرهم، كما تشك أنت في عنتره. إذن، يجب ألا تُسرف في الشك، ولا تتبالغ في المراء، ولا تأخذ أحاديث عنتره، ونسبه وشعره باستخفاف؛ لأنه في كل زمان ومكان يخترع الناس شخصاً يتخذونهم قدوة في الحب، أو الكرم، أو الشجاعة، أو المغامرة، أو غيرها. مثل هذه الشخصيات إن لم تكن موجودة ستخترعها الشعوب أو الحكام أو غيرهم. إذن فإنّ لكل شعب وعصر وزمن عنترته المجلّ، وبناء عليه فالعاقل هو الذي يجتنب الغرور قدر المستطاع، ويشكّ بعقلانية، ويصدق ما يقوله الناس دون المبالغة في التحري والبحث والاستقصاء والتمحيص.

طه حسين ينكر طائفة من الشعراء، أو ينكر شخصيتهم. إنّهم يشكّ فيما يقال حول قيس وليلى، وفي وجود عمر بن أبي ربيعة، والشاعر وضاح اليمن. إنّهم يشكّ حتى في وجود قيس بن الملوّح وفي الشعر المنسوب إليه ويعتبره شخصاً خيالياً اخترعه العرب لتمثيل فكرة معينة، ربما متعلقة في المبالغة في الحب، أو في الفروسية، أو في اللهو والمجون. لقد اخترع الرواة هذه الشخصية، كشخصية "جحا"، ربما للهو أو لحاجة أدبية. إنّهم يشكّ أيضاً في أسماء النساء التي وردت في أشعار كبار الشعراء العرب، مثل: ليلى، ولبنى، وعزّة، وبثينة، وعفراء، وهند، ودعد، وسعاد. إنّها أسماء نساء اتخذها الشعراء كمثل عليا للأشياء التي كانوا يلتصقونها ويطمحون إليها، حين كانوا يتغنون في الحب والجمال والشجاعة، كما كان اليونان يتغنون بـ "هيلانة".

إن شكه في مجمل الآداب القديمة يجعله يخضعها للفحص والتمحيص، لكنه في المقابل يفهم أن هذه الآداب وضعت لملاءمة أذواق المعاصرين لها. لهذا يشكّ طه حسين كثيراً في الأدب العباسي؛ لأنه يعتبر هذا العصر عصر الشكّ والمجون واللهو، وشعراؤه كبشار بن برد، وحمام عجرد، وأبو فراس الحمداني مشكوك في أشعارهم. ليس بالضرورة، حسب رأيه، أن يكون الأدب القديم ملائماً كله لذوقنا الحديث؛ لأنه لم يوضع لنا بل وضع لأنفسهم ولإرضاء حاجاتهم، ولهذا فيه الكثير من المعلومات المشكوك بها، لكنها كانت مصدقة في عصرهم، وتتفق مع تفكيرهم.

إنّه يحترم ويقدّر الكتاب الشكاكين، مثل: إيليا أبو ماضي الذي لا يؤمن بشيء، ولا يطمئن لشيء دون تحقق. أبو حامد الغزالي أيضاً (450-505 هـ) واحد ممن جعلوا مسألة الشكّ المنهجي إطاراً لبلورة المدارك، والمعارف الحسية والعقلية والقلبية؛ للوصول إلى الحقيقة. الدكتور

يعكر وضوحها، إذًا هو الشك الذي نتخلص منه باليقين والوضوح التام. هذه هي الفلسفة التي اتبعها طه حسين، بدءًا من الدهشة، وهي كما قال أرسطو "أول التفلسف"، إلى لفت انتباه القارئ العربي إلى أمور لم يعتدها سابقًا حول تاريخه، لقد كان على قناعة بأن تحرر العقول الحديثة من الأوهام والأفكار المغلوطة؛ ستنتج حضارة حديثة متحررة من الفكر المتخلف.

النتيجة:

اتضح لنا من خلال هذه الدراسة أن ما بين ديكرت وطه حسين من وجه الشبه، لا يقتصر فقط على منهج الشك، بل تعداه إلى أهمية هذا الشك المنهجي في تأسيس فلسفتها وطرقها في البحث عن الحقائق. لقد تلقى كلاهما في صغره الكثير من الآراء الخاطئة، واكتسبا من الكتب أو الأساتذة الكثير من المعلومات المغلوطة، أو المشكوك بها عن التاريخ والشخصيات والأحداث.

لقد خلصت هذه الدراسة إلى النتائج الآتية:

1- لقد بحث كلاهما عن الحقيقة بحثًا مجردًا غير مسبوق بأحكام معينة، وشكًا في كل شيء، خصوصًا في الأشياء الموروثة، وقد تجرد كل منهما مما كان يعلم سابقًا، وبدأ كل منهما بحثه خالي الذهن من الأقوال، والآراء السابقة في موضوع البحث.

2- لقد كان شكهما شكًا عقليًا، فبنوا فكرهما على العقل، عبر استخدام هذا العقل اثباتًا حقائق لا التباس فيها، لم يكن إذن شكهما شكًا زندقية أو إلحاد، وإنما كان طريقًا فلسفيًا للوصول إلى معرفة الحقيقة، تلك المعرفة التي يدركها العقل بيقين قطعي مطلق.

3- إن فلسفة الشك عند ديكرت وطه حسين هي فلسفة تفكيرية تنكئ على تركيز النشاط الذهني، الذي يسمح بإعادة الغربة الفكرية المنهجية لكل ما سمع، أو قيل عن شيء ما، أو حدث ما، أو شخص ما، والتحليل العلمي المنطقي للكثير من اليقنيات الوهمية؛ لجعلها حقائق ثابتة لا التباس فيها. هذه الفلسفة التي تقضي إلى اليقين، وتكون مرتبطة ببراهين منطقية تسوّج التحول من الشك إلى اليقين، وتعزز الثقة بسلامة المعطيات التي تمّ التوصل إليها، بخلاف ذلك سيكون هذا التحول مشكوكًا فيه، وهذه الفلسفة عبثية وغير مقنعة.

4- إن الشك عند ديكرت وطه حسين فتح لهما آفاقًا جديدة لاستيعاب فكرة الخطأ وقبولها في كل ما سمعوه، وقرأوا عنه ورفضوا فكرة الانغلاق الفكري، أو الانحباس في الإطار المسلم به، والقدسية والصدق المطلق بكل ما روي من أحداث.

5- إن ديكرت وطه حسين اتفقا على أن الله والدين ليسا موضع شك، وأن كليهما استخدم الشك للوصول -عبر العقل المنفتح- إلى الحقيقة.

6- بينما ناقش ديكرت الشك كنهج وفلسفة، استخدم طه حسين هذا الشك فقط لتفنيد ما دار حول بعض الأحداث، والشخصيات، والروايات التاريخية القديمة.

من كل العواطف القومية والدينية والقبلية والشخصية، حتى يصل الباحث إلى درجة عالية من الموضوعية، وبناء عليه يكون بحثه راسخًا وصحيحًا وبعيدًا عن تكريس الطغيان وتعظيم الجهل. بالإضافة إلى أن طه حسين الشاك، يتفق كثير مع من المفكرين العرب والغربيين، ومن بينهم أدونيس، والجمحي، والمستشرق البريطاني مرجليوث، والذي يؤكد بأن المحذوف من ثقافتنا العربية أكبر بكثير مما هو موجود بين أيدينا أما المتحل فهو كثير.

إن مبدأ الشك الذي دفع بطه حسين لإعادة قراءة التاريخ العربي، والبحث بكل جوانبه على أساس علمي، ومسند سند صحيح هو نفسه الذي قاد أرنست رينان، وتيودور نولدكه، وفلهلم ألفرت، إلى الشك في اللغات السامية والشعر العربي والقصائد القديمة. في المقابل يعدّ بعض الباحثين أن طه حسين اعتمد في نقاشاته حول التاريخ العربي القديم، على منهجية شاكة ومُبهمّة، ووضع فرضيات غير مبنية على أسس ثابتة، أكدها حينًا ورفضها حينًا، فهو لم يثبت فرضياته، ولم يصل إليها بالشك كما كان يفعل ديكرت. لقد رأى بعض النقاد، ومنهم الدكتور يحيى ولي، بأن طه حسين لم يتبع ديكرت في نهجه الذي اتخذ من الشك وسيلة للوصول إلى الحقيقة، بل اتخذ "الشك" وسيلة للشك فحسب"، وأنه تعامل مع النصوص بشكل غير حيادي، وأنه استنطقها "بخلاف المنهج الذي وضعه لنفسه؛ مما أثار حفيظة منتقديه الذين تصدّوا لآرائه بالحديد والنار" (Haider, 2013, p. 185).

لقد تجرد حتى من الفكر الديني، ومس بعض ما هو في القرآن، فمثلاً يقول بأن إبراهيم وإسماعيل ورد ذكرهم في التوراة والقرآن، لكن هذا لا يعني وجودهما تاريخيًا. وهدفه من ذلك كان خلخلة الفكر العربي، حتى لو كانت هذه الخلخلة تؤدي إلى ثورة ضده. على مستوى الوطن العربي، كان طه حسين رائد الشك أو المتمرد على ما اعتبر الأصول الثابتة في التاريخ العربي، وقد عكر صفو "حراس العقائد" بدعوته لإعادة قراءة التاريخ.

على غرار من سبقه من الأنبياء والفلاسفة الذين أحدثوا شروخًا في تفكير المجتمعات، بدءًا بإبراهيم الخليل الذي شكك في الأصنام التي يعبدونها قومه، وديكرت الذي أنكر الموروث الكنسي، واحتكار رجال الدين لتفسير النصوص الدينية حسب رغبتهم، والغزالي رائد الفلسفة العربية بمقولته الشهيرة: "علمني الشك اليقين"، فجر طه حسين بشكّه قبلته "في الأدب الجاهلي"، التي أصابته شظاياها ذات الطابع الفكري والديني وحتى السياسي. بعد أن هدأ الصوت قليلًا، وانجلت الصورة، نهض طه حسين بشعبية أكثر، فتلقّته كل وسائل الإعلام والأوساط الفكرية.

طه حسين يؤمن بأن الشك هو إحياء للمعرفة، ولا معرفة حقيقية ومُثبتة بدون شك، وهذا الشك هو مبني على الدهشة والانفعال، وعدم الوضوح، وتباين الآراء والاتجاهات. فالشك الذي أراده كاتبنا هو الحذر، والنقد، والتمحيص، والغور في بواطن الأمور؛ لسبرها وإزالة ما علق بها مما

References:

- Abu Nasser, M. (17, August, 2018). The Value of a Person is That He Thinks That He Doubts, Dar Al-Hayat. www.aljamal.com/node/61686.
- Al-Mojil, S. (30, January, 2017). The Cartesian. Taha Hussein! Al-Qabas Electronic, <https://alqabas.com/article/352232>
- Al-Nashar, M. (29, October, 2018). "Taha Hussein and the Cartesian Doubt", Al-Wafd Newspaper. <https://alwafd.news/essay/3672>
- Badawi, A. (1979). Orientalist Studies on the Validity of pre-Islamic Poetry, Dar Al-Ilm for Millions.
- Baghazi, A. (4, June, 2010). "Al-Jahiz doubt. Cartesian and Dr. Taha Hussein, this is a triangle of greatness that includes three great personalities", Al-Madina Online. www.al-madina.com/article
- Bouzida, A. (1994). "Taha Hussein and the Cartesian Doubt Method and the Homeric Question (a comparative study)", Journal of Language and Literature, Volume 3, Number 1, Algeria.
- Debo, B. (17, April, 2016). "Doubt, Is It to Despair of the Truth? Revision of the bac", Le Monde, <https://www.lemonde.fr/philosophie-terminale/douter>
- Descartes' Doubt, Baccalaureate Reviews, Express Prof. <https://soutien.profexpress.com/doubt>
- Descartes, R. (1982). Metaphysical Reflections on First Philosophy, translated by Dr. Kamal Al-Hajj, Oweidat Publications.
- Descartes, R. (2008). Hadith of the Way, translation, explanation and commentary by Dr. Omar Al-Sharni, The Arab Organization for Translation.
- Haider, Y. (2013). "Orientalist Theory Suspicion among Mrgelyot and Astgrabih Taha Hussein", Al-Adab Journal, No. 106 p, pp. 165-189.
- Hussein, T. (2012 A). Hadith Wednesday, Hendawy Foundation for Education and Culture.
- Hussein, T. (1996). In Pre-Islamic Poetry, Dar Al-Nahr for Publishing and Distribution.
- Hussein, T. (2012 B). From afar, Hindawi Foundation for Education and Culture.
- Khayat, M. (2017). "Taha Hussein's Cartesian Skepticism: an Epistemological Paradigm or a Lackluster Reception?" The Professor Magazine, Volume 13, Issue 19.

- 7- لقد انحسر شكّ طه حسين بالأدب العربي القديم وتاريخه الذي تأثر سلباً -حسب رأيه- بالعصبية القبلية، والمنافع السياسية، بينما ذهب ديكارت في شكّه إلى مناقشة مواضيع أوسع، كالدين والسياسة والعلوم المعرفية وغيرها. لم يكن إذاً منهج ديكارت خصباً في العلم والفلسفة والأدب فحسب، بل هو خصب أيضاً في الأخلاق، والحياة الاجتماعية، أما منهج طه حسين فقد ارتكز فقط على الأدب القديم.
 - 8- هنالك فارق أساسي بين شكّ ديكارت، وشكّ طه حسين، فالشكّ الديكارتية هو شكّ مُمنهج هدفه الوصول إلى الحقيقة الجلية في موضوع البحث؛ من خلال المعرفة العلمية والواقعية المُعمقة، التي تبحث عما هو جوهري ويقيني فيه، أما الشكّ عند طه حسين، خصوصاً في صحّة الشعر الجاهلي، فقد اعتراه الشعور السلبي غير المُسند إلى التحري والبحث المُعمّق المبني على أدلة حقيقية واضحة. فالشكّ الذي مارسه طه حسين في دراسة الادب الجاهلي قريب جداً من الشكّ "المتلبس" صاحبه، والمسيطر عليه حيث ينتهي به إلى إنكار موضوع البحث.
 - 9- لقد تشابها في كونهما لا يقبل شيئاً على أنّه حق، إلا إذا ظهر لهما ظهوراً بدهياً وواضحاً، أما الفرق بينهما فهو في الخروج من الشكّ، فطه حسين جعل من القرآن والسنة أساساً لحقيقة التاريخ العربي، رغم شكّه التاريخي ببعض قصصه، أما ديكارت فقد جعل من الكوجيتو الحقيقة الأولى، أي: "أنا أفكر إذاً أنا موجود".
 - 10- لقد استخدم كلاهما الشكّ المنهجي للوصول إلى حقيقة جلية لا التباس فيها، فكلاهما يعتبر العقل قادراً على الوصول إلى الحقيقة؛ إذا فكر تفكيراً صحيحاً مُرتكزاً على شواهد صادقة وثابتة. كلاهما كان يعتبر الشكّ من الأسس الحقيقية للحرية الفكرية، وهو الدافع والمحرك لكل تحليل وتفكير نقدي.
 - 11- كما تعرض ديكارت في زمانه لظلم الأصوليين المسيحيين ومطاردتهم؛ لأنه شكك بما عُرف باليقينيات المطلقة التي اتفق عليها قومه، واعتُبر المسّ بها أو مناقشتها محرماً، كان طه حسين أيضاً محلّ حصار الأصوليين المسلمين؛ لأنه شكك بوجود الشعر الجاهلي، واعتبر الكثير من الروايات حول شخصياته وأحداثه غير صحيحة. وهكذا حرّر هذان المُفكران بشكّهما العقل العربي والغربي، ودفعاً به إلى إخضاع كلّ الأمور إلى العقل والمعرفة، التي كانت محصورة في الأقدمين من العلماء ورجال الدين، فأصبح مرجعهما هو العقل الذي يفكر، ويشكّك، ويحلّل، وينتقد.
- ناقشت هذه الدراسة جزءاً يسيراً من المواضيع المتعلقة بمسألة الشكّ عند هذين الكاتبين، ويبقى المجال مفتوحاً أمام الزملاء الباحثين لمناقشة الكثير من الحثثيات المتبقية حولها، هذه الدراسة جهد متواضع حاولت من خلاله فهم أوجه الشبه والاختلاف وتوضيحها، بين شكّ ديكارت وشكّ طه حسين، وأرجو أن أكون قد وفّقت في تحقيق هذه الغاية.

- Louangvannasy, A. (10 November, 2018). The methodical doubt of René Descartes, Philo Blog, www.aline-louangvannasy.org/2018/11/le-doute-meth.
- Mendas, A. (2015). "The Dialectic of Doubt in Pre-Islamic Poetry and the Establishment of its Sources between "Taha Hussein" and "Nasir Al-Deen Al-Assad"", Journal of Arts and Languages. Volume 3, Issue 11.
- Meziani, F. (2021). "Taha Hussein's Systematic Doubt "In Pre-Islamic Poetry" as a model", Journal of Arts and Humanities, Volume 14, Issue 2.
- Rovere, M. (2019). "Descartes, Doubt in Order not to Hesitate any Longer", Literary Magazine , monthly (499). <https://www.nouveau-magazine-litteraire.com/descartes>.